

المخطوط والهوية الحضارية

أ.د. بوشخي الشيخ
جامعة وهران 1

لقد تم إلقاء هذه المحاضرة يوم 3 مارس 2015 في اطار الملتقى الدولي الذي احتضنته جامعة وهران والذي اشرف عليه ونظمه مخبر الصورة بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية.

لقد كانت هذه المحاضرة الأولى قبل الشروع في الجلسات باعتبارها المحاضرة الافتتاحية لهذا الملتقى الموسوم **صورة المخطوطات العربية وإشكاليات الإبلاغ والتلقي**.

لقد كانت هذه المحاضرة حول مجموعة من العناصر والأفكار من وجهة تاريخية وسوف تنشر بمجلة مخبر الصورة بنصها الكامل ولكن بتصرف.

مما لا شك فيه ان تعريف المخطوط تطور عبر العصور وخاصة في بعض الحضارات لكن القاسم المشترك في كل هذه التعريفات يكمن في ان المخطوط هو هذه الوثيقة المكتوبة التي تتضمن معلومات من الممكن أن يكون حولها اختلاف من طرف المختصين والمهتمين في كل عصر وهذا بحسب أهمية المخطوط في نظر المحقق.

إن مخطوط كوثيقة تاريخية عابرة للعصور وللأقاليم تشتمل على عناصر أساسية من أهمها المعلومة اللغة صاحب المخطوط شكل الخط، وأداة التدوين بالإضافة الى ما استعمل لتدوين الخط عليها من ورق بأنواعه من الجلد أو العظام وغيرها.

لقد كان كل ما دونته البشرية بوعي ومن خلال رموز يطلق عليها عادة حروف بمثابة مخطوطات قبل اختراع الطباعة في القرن 16 بأواسط أوروبا من المؤكد ان النقاش حول هذه النقطة الأخيرة يحتم علنا طرح بعض الأسئلة على شاكلة:

-هل كل ما كتب قبل اختراع الطباعة يمكن إن يوصف بالمخطوط؟

-هل إعداد النسخ للنص الواحد تعتبر بدورها مخطوطات؟

-هل بإمكاننا ان نعتبر أن المخطوط هو الوثيقة التي خطت بيد صاحب النص فقط؟ اي هل

من شروط وصف النص بانه مخطوط يحتم كتابته بخط يد صاحبه فقط ام يتعد الامر الى الابلاغ،املاء، او تدوين يأمر به الحكام وأصحاب الحضوة في المجتمعات المختلفة والأزمنة والعصور المتعاقبة.

ان الأسئلة الواعية حتما هي الطريق المستقيم للطرح العلمي الذي يوصل جزما الى الحقيقة العلمية او ما يقترب منها فهذا هو الذي سوف يجعل هذا العمل بشكله الحالي على مستوى هذه المجلة او بشكله الذي تدخلت من خلاله في الملتقى الدولي المذكور أعلاه يخص بمجموعة من الاسئلة اكثر من طرح الأجوبة على امل ان نكون قد اسهمنا:

-باستمرار النقاش العلمي حول المخطوطات

-ان نكون من خلال طرح هذه الأسئلة والنقاش المعروض من خلال هذه المقالة قد

اسهمنا في تطوير هذه المعالجات لمسالة المخطوط.

مما لا شك فيه ان ما خطه الانسان على الطبيعة له تعريفات في ايطار النقوشات وعلم الآثار عموما ولنتفق على ان المجال الزمني الخاص بالمخطوط يمتد 3200 قبل الميلاد الى هذه الفترة التي نعيشها اي ما يربو قليلا عن 5000 سنة.

غير ان المؤكد لدينا ان النقاش الناضج والعلمي فيما يتعلق بالمخطوط يحتم علينا اعتماد اختراع الكتابة كعتبة فرق بين اللامخطوط والمخطوط . وبالتالي فاننا نتحدث عن الارتباط المخطوط وانتشاره بالكتابة.

ان التعريف الخاص بالمخطوط من خلال الأسئلة الذي طرحناها سالفًا لا يمكن ان يبعدنا عن طبيعة المخطوط حيث ان المخطوط هو تلك الوثيقة التي تاكدنا من كونها تحمل معلومات خطية في زمان ومكان جعلها المضمون الذي تحتويه ذات اهمية بالنسبة للمهتمين خاصة وللمثقفين عموما.

لقد اشتركت كل الامم في مسالة الاهتمام بالمخطوط ولا يمكن لنا ولا لغيرنا من الأمم ادعاء اهمية ومصادقية مخطوطاته بالمقارنة مع غيرها باي شكل من الاشكال.

ان العلاقة بين المخطوط والتاريخ عموما من جانب , والانتماء الحضاري او الهوية اساسا من جانب اخر عميقة، فبقدر ما يزداد الوعي , بالتمدن , الحضارة , سيزداد قطعا الاهتمام بالمخطوط خاصة وبالتاريخ عموما وكلما انعكس الامر نتيجة للتخلف والانحطاط , فقل الاعتناء بالمخطوط والتاريخ حتما.

نتيجة لتاريخ البلد والامة التي ننتمي اليها بفخر واعتزاز فاننا سنركز في عملية المقارنة في هذا المجال بين امتنا العربية الاسلامية و المستضعفين عموما من جانب , وما يعرف بالغرب مجازا اي من اطلق عليهم في فترات من التاريخ الامم الصليبية , الحركة الاستعمارية الاوروبية , او الرجل الابيض عموما.

دون الغوص في التاريخ البعيد فاننا سوف نتأكد من احترام الحضارة العربية الاسلامية الا قليلا تاريخ الامم الاخرى من حيث عدم الاعتداء على اثارها بما في ذلك بعض النصب والتماثيل وقبور مشاهيرهم كما حدث في الفتوحات على ايام الخلافة الراشدة لاقاليم الشام مصر والغرب الاسلامي الى غير ذلك من الامصار حيث لا تزال الكثير من المعالم التي تم تصنيفها تراث وطني , بل عالمي اكثر من هذا فقد تم صون ارشيف الكثير من الاقوام التي تعايشت في ايطار الحضارة العربية الاسلامية او على الاقل عدم الاعتداء عليها عنوة بشكل ممنهج وواضح هكذا سوف تستمر كثير من المخطوطات سواء على المستوى الكنائس او المدارس الدينية لغير المسلمين في كثير من اقطار اوروبية في غربها او شرقها في نفس الوقت نجد ان معظم الاقطار العربية الاسلامية التي وقعت تحت الغزو او احتلال او استعمار فقد افادت بعد تحررها على خراب فيما يتعلق بتاريخها خاصة الارشيف فالا لم يدمر كله فقدتم السطو على جله كما حدث بوضوح في ارشيف الجزائر العثمانية عشية الاحتلال الفرنسي للبلاد او كالسرقة والاستلاء على الموروث الحضاري بما في ذلك

المادي على وجه اخص من خلال المخطوطات او بعض الاثار كالمنحوتات او كما حدث في مصر من خلال النهب ممنهج للآثار الفرعونية لواد النيل او ما حوله ان هذا الوضع المماثل جعل الكثير من الاسر وبعض الزوايا في الكثير من الاقاليم العربية الاسلامية تتعمد اخفاء ما امكن من المخطوطات مما سوف يجعل من الصعب استمرار المخطوط على اصله الم يندثر نتيجة العوامل المتعلقة بالرطوبة او البكتيريا الضارة للمخطوطات ,وملامسة القراء لها حين الوعي والنضج او التقديس والتمسح حين الضعف او الانحطاط. هذا الوضع سوف يجعل مهمة السلطات البلد بعد استقلاله يعرف صعوبة كبرى في اقناع هذه الاسر ومن لايزال يحتفظ ببعض المخطوطات بتسليمها للمختصين على غرار مؤسسات الارشيف الوطنية او المكتبات الوطنية وما يشبهها او يقوم مقامها من المؤسسات الرسمية .

فماهي الاسباب الحقيقية في هذا الفرق الذي تعاملت به الحضارتان مع الذاكرة والتاريخ خلال الحروب والسيطرة على مقدرات البلاد المنهزمة, المفتوحة المحتلة او المستعمرة . الواضح في تعامل الامة العربية الاسلامية من جهة والكثير من الامم الغربية من جهة اخرى مع المخطوط الارشيف والتاريخ عموما فبينما نجد العناية او على الاقل عدم الاعتداء من طرف الاولى.: اي الحضارة العربية الاسلامية فاننا نجد عكسها في تعامل الغرب مع هذا الامر.

لقد عرفت الانسانية مظالم كثيرة في هذا المجال لم يقم بها الغربيون فقط في ارض العرب والمسلمين بل كان غيرهم ايضا خاصة على يد الماغول في نهاية العهد العباسي في بغداد ببلاد الرافدين.

حيث تعج كتب التاريخ بروايات هؤلاء الاقوام عند دخولهم عنوة ايت مدينة ولا يخفى على اي مطلع من الذي حدث لمدارس مؤسسات ودواوين وبوجه اخص مكتبة الحكمة او ما تبقى منها ببغداد وغيرها حيث امتلا النهران بالكتب والخرائط والمنشورات وغيرها من المخطوطات حتى شكلت هذه الكتب في المجاري المائية جسور يسير عليها الناس والخيول

غير ان الفرق بين هذه الاقوام الهمجية انذاك والغرب فرق كبير حيث ان التاتار كانوا يقومون بهذا في معظم اوقات دون وعي

اما الغرب فكان يقوم بمقام وهو يعلم اهمية التاريخ والارشيف والمخطوط في معظم الاوقات

3- يشتهر بين الناس مفهوم المخطوط في كونه ماخاط بيمين صاحب المخطوط اي صاحب النص فكرة واسلوب وكما يشتهر في عصرنا بالشكل والمحتوى ان هذا سليم غير انه غير كاف فقد تسائلت منذ بداية وعي هل خط صاحب المخطوط شرط في نعت هذه الوثيقة بالمخطوط؟

قد يكون بوصف كشخص بما له علاقة بفقد البصر سببا في التفكير في هذا الامر غير اني تاكدت مع مرور الزمن وسنوات الاطلاع ان مسألة الخط باليمين شرطا غير مطروحا فقد تبين لي ان الكثير من رواد الحضارة والفكر عبر التاريخ كانوا يستخدمون كتبه او ما يسمون في ايام الناس هذه باميين المكتب او السكريتير.

وبعيدا عن التحدث عن المقدس على ايام النبوة من املاء للقران الكريم من لدن محمد ابن عبد الله عليه افضل الصلوات على صحبه الكرام الذين كانوا يكتبون ايات الذكر الحكيم . بعيدا عن هذا فاننا نتحدث عن القديس اغستين الذي ترك ما ترك مما كتب خاصة كتاب الاعترافات حيث تؤكد كل النصوص التاريخ انه كان يقوم باملاء ولم يعرف انه خط بيمينه او شماله, بل يستخدم خطاطي

اما فولتير كان يستخدم امينة مكتب, وبالتالي اصبحت هذه السيدة اشهر من علم على نار بين المؤرخين وخاصة مؤرخين الفنون بغرب اوروبا لم يكن الامر يقتصر على هذا النوع من المفكرين والمبدعين فمن المعلوم بالضرورة ان الحكام و اصحاب الحظوة كان باستطاعتهم الكتابة دون عناء

-هل تعتبر رسائل وكتب هؤلاء الناس مخطوطات؟

قطعا لا يختلف عاقلان في كون ان هذه الوثائق من صميم المخطوط كذلك غير اننا سوف نجد ان الانسانية كانت تستعمل الكتبه في كل ما كتب او ما هو اهل للمقروئية قبل القرن 16 اي قبل اختراع الطباعة بل استمر الوضع بعد ذلك الى غاية سيطرة الطباعة وانتشارها عبر الكرة الارضية.

هل هذه النسخ التي كانت تمثل مطبوعات هي ايضا في خانة المخطوط

اني اعتقد ان في هذه الحالة النسخة الاولى اي الاصلية هي التي يصح فيها وصف الوثيقة او التي خطها صاحبها او املا محتواها .

بينما تكون النسخ الاخرى عبارة على منشورات بمفهوم ما نسخ قصدا لبيع هذه المطبوعة, بينما كانت هذه الوظيفة التي عرفها الكتاب عموما قبل الطباعة اشتهرت كثيرا في بلاد العرب والمسلمين منذ القرن الاول للهجرة وكانت عبارة على الصناعة الرائجة حيث كان يشتهر رجال يتصل بهم اصحاب الكتب وبعد الاتفاق على نوعية الاصدار والسعر والمدة بالاضافة الى عدد النسخ يقوم صاحب الحرفة باستئجار دكان او اكثر ويجلب افضل الخطاطين ويبدأ العمل عن طريق الاملاء والتدوين ثم الحلقات الاخرى الى التغليف فليبع كما اشتهرت هذه العملية بين القرنين الخامس الى التاسع ميلادي شيئا فشيئا في بعض المدن بغرب اوروبا فيما سوف يعرف بين المؤرخين بحركة كوبيسـت TECOPIS هذه الظاهرة التي زامنت سقوط روما بعد افول نجمها لصالح بيزنطة ولم يكن مسموح خلال هذه الفترة لغير رجال الكنيسة للقيام بهذا الامر

قدر ما كان الصراع بين الامم وارد في كل حين ومكان في الحرب والسلم فان اخطر صراع بين الكيانات هو الهيمنة على التاريخ واستثماره وخاصة المخطوط ان الوعي بهذا الامر يشكل احد اهم مؤشرات النضج على مستوى امة من الامم اننا في فترة من تاريخ البشرية تجعل عدم القيام بالواجب في هذا الامر عجز وتقاعس او تفريط في الحق فكل ما هو موجود ما بين ايدينا يمكننا من المحافظة على الموروث وخاصة المخطوطات وتصميمها قدر الامكان عن طريق وسائل الاتصال الحديث بعد تصويرها.

اننا نرى انه من الواجب تكوين بعض من ابناء الامة بشكل احترافي في مجالات البحث عن المخطوط للعناية به ومعالجته وترويج له
إن الجزائر في معركتها من اجل التحرر قامت بالكثير من الخطوات من اجل ضد المزاعم الاستعمارية فعمل علمائها ومثقفوها على التاكيد ان الجزائر ليست فرنسية واعتمد أبائنا قیل الاستقلال على الاستخدام التاريخ واستثماره إلى تحرير الجزائر 1962 من الهيمنة الاستعمارية الفرنسية.